



فلسفة التربية في قصة حي ابن يقظان ل- ابن طفيل-  
مقاربة فلسفية بيداغوجية

أحمد ناشف  
جامعة الجزائر2

الملخص باللغة العربية:

الكلمات المفتاحية: فلسفة التربية، بيداغوجيا، ابن طفيل، تربية.  
استطاع ابن طفيل بذكائه الفلسفي توظيف عناصر القصة توظيفاً يخدم الغاية التي ينشدها، فهو يريد أن يثبت أحقية العقل البشري في النفاذ إلى الحقيقة. دنيوية كانت أو أخروية، وأنه يمكن عن طريق تلك التساؤلات التي تنشأ في ذهن الإنسان وتتطور بالتدرج أن تصل إلى الأسئلة الكبرى مثل مصدر الحياة وخالق الكون وغيرها، ولكنه قبل ذلك عليه أن يتعايش مع الطبيعة ويكتشف فيها بالتجربة والبحث خصائصها وقوانينها، وأن عليه مسؤولية صعبة تمثلت في تنوير هؤلاء الذين لم يستطيعوا اكتشاف الحقيقة بمحض عقولهم، فهم دائما في حاجة إلى من يرشدهم إليها، أو يقودهم بالرغم من الصعوبة في ذلك. فالتربية التي ينشدها فيها من الحرية ومن التقنية ومن الفن ومن الأخلاقية والغاية القصوى هي الغاية الأخروية، يمكن اعتبار كل خطوة عبارة عن استراتيجية بيداغوجية تصاعديّة تتكامل فيها خصائص الفرد المتفرد وخصائص الإنسان الاجتماعي المقلّد والمنصهر في المنظومة السياسية، ذلك أنّ

الحياة الاجتماعية حسب القصّة تحدّد من إمكانات الإنسان المتفرّد بالرغم من حاجته إليها. ومن هنا فالمقاربة البيداغوجية لهذه المراحل يمكن أن تكون مرجعا مهما في بناء التعلّيمات وفي تسيير الطرق البيداغوجية في عمليتي التربية والتعليم.

الملخص باللغة الأجنبية:

A l'origine; Quel que soit le contexte dans lequel l'histoire du "Haay Ibn Yaqhdhan" a été écrite, on ne peut nier la nature éducative de celle-ci.

Ibn tufayl; par son intelligence philosophique a pu employer les éléments de l'histoire pour servir le but demandé, il veut prouver le droit de l'esprit humain a l'accès à la vérité, mondaine était ou occulte, et il peut à travers ces questions qui se naissent dans l'esprit de l'homme évoluer progressivement pour atteindre les grandes questions telles que l'origine de la vie et le créateur de l'univers et autre, mais avant il doit cohabite avec la nature et découvre par l'expérience et la recherches ces caractéristiques et ces lois, et qu'il endosse une responsabilité difficile d'éclairer ceux qui n'ont pas pu découvrir la vérité avec leurs propres esprits, par conséquent ils ont toujours besoin de quelqu'un pour les guider, ou les diriger malgré la difficulté, l'éducation qu'il veut englobe la liberté, la technologie, l'art, la moralité et le but ultime c'est l'au-delà.

La vie sociale selon l'histoire détermine les capacités de l'individu, malgré son besoin pour elle. D'où l'approche pédagogique de ces étapes peut être une référence importante dans la construction des

## apprentissages et dans le soulignement des méthodes pédagogiques dans les processus d'éducation et d'enseignement.

مقدمة:

ليس غريباً عن الفلسفة استعمال الإيحاء القصصي لغرض إبلاغ محتوى أو وجهة نظر غالباً ما تكون خافية عن الجمهور من الناس، بل يمكن أن يعجز أمهر الناس في علم من العلوم عن إبلاغ رسالته إلى البشر من حوله، لذلك فاستعمال المحاكاة والتمثيل وغيرها من أدوات الحجاج البلاغي والجدلي واللساني، والفلسفي.ويمكن أن يكون أداة للتربية وتوجيه الفكر البشري وجهة ما، داخل الخطاب القصصي. هذا ما نحاول تتبعه من خلال تناولنا لقصة حي ابن يقظان لابن طفيل، ذلك أنه رغم الوجهة التي يرسمها ابن طفيل لتلميذه في النهاية داخل بيئة موجهة إلى الغاية القصوى الأخروية التي يصل إليها بعناء فردي، فإنه لا يمكن اختصار كل تلك المراحل في الغاية النهائية. بل يمكن اعتبار كل خطوة استراتيجية بيداغوجية تصاعدية تتكامل فيها خصائص الفرد المتفرد وخصائص الإنسان الاجتماعي المقلد والمنصهر في المنظومة السياسية والاجتماعية

ومن ثمّ يمكن مساءلة هذه القصة من نواحي عدة: هل يمكن اعتبار المراحل التي مرّ بها حي خطوات تربوية متدرجة نحو اكتشاف الإنسان الفرد لذاته ولقدراته المختلفة ولعلاقته مع الآخر؟ ثم ماهي الغايات القريبة والبعيدة التي يرسمها "ابن طفيل" في تربيته الطبيعية لتلميذه داخل القصة؟ وأخيراً ألا يمكن اعتبار كل ذلك استراتيجية بيداغوجية يمكن الإفادة منها لصالح نظرية تربوية معاصرة تراعي الغايات المختلفة من الفعل التربوي؟

1-ابن طفيل: من تربية الفرد البشري إلى تربية النوع الإنساني:

قصة(\*) "حي بن يقظان" التي كتبها الفيلسوف الأندلسي "أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل" [506هـ-582هـ] [1110هـ-1185هـ] تلخّص بأسلوب قصصي وفلسفي كيف يمكن للإنسان بلوغ الحقيقة عبر تجربة فريدة ينتقل فيها من مرحلة إلى أخرى وكل مرحلة هي أكثر كمالاً وتطوراً من سابقتها بفضل مسار العقل الإنساني نحو الحقيقة والغاية المنشودة كما أنّ هذه القصة التعليمية الفلسفية تتم عن بلوغ المسلمين في مجال الدراسات الإنسانية درجة متقدمة من المنهج العلمي والتعليمي والفكري، وهي مثال لكل تربية سوف تأتي من حيث الأهداف والغايات أو الوسائل والمنهج وخصائصها حسب ابن طفيل أنّه:

"في جزيرة مهجورة من جزائر الهند حمل البحر إلى الشاطئ طفلاً موضوعاً في تابوت أحكمت زمه أمّه بعد أن أرضعته و أروته من الرضاع وكانت أميرة [مضطهدة] في جزيرة مجاورة فاستودعت ابنها الأمواج تنجيه من الموت. وهذا الطفل هو "حي بن يقظان" فتبنته غزالة و أرضعته وصارت له كأمه، ونما "حي" و أخذ يلاحظ ويتأمل وكان الله قد وهبه ذكاءً وقادراً فعرف كيف يقوم بحاجات نفسه، بل استطاع أن يصل بالملاحظة والتفكير إلى أن يدرك بنفسه أرفع حقائق الطبيعة وما وراءها، وقد وصل إلى ذلك بطريقة الفلاسفة بطبيعة الحال" ولم يبق على هذه الحال حيث "لقي حي رجلاً تقياً يسمى أبسال أقبل من جزيرة مجاورة إلى هذه الجزيرة يحسبها خلاءً من الناس وقام أبسال بتعليم الكلام لصاحبه المنفرد بنفسه والذي لقيه دون أن يتوقع ذلك"<sup>(1)</sup>

والسؤال هنا هو ما الذي أراده صاحب القصة "ابن طفيل" من خلال هذه الرحلة الطويلة المتخيّلة ؟

إنّ المتأمل في مراحل هذه القصة ليجد أنّها كتاب مفتوح في التربية والتعليم، اختصر فيه "ابن طفيل" الغايات الكبرى والمنهج والسبل لكل تربية حاضرة أو مقبلة بطلها الإنسان الباحث عن الحقيقة فيكشفها بعقله، لقد أراد أن يبيّن

"أنّه في وسع الإنسان أن يرتقي بنفسه من المحسوس إلى المعقول إلى الله بحيث يستطيع بعقله أن يصل إلى الحقيقة."<sup>(2)</sup>

على أنّ قصة "حي بن يقظان"<sup>(\*)</sup> تعتبر مرجعاً أساساً يوضّح تلك الطرق التي أشار إليها "الفارابي" في ترتيبه للعلوم والطرق الموصلة إلى الحقيقة حتى بدون معلم، بل أنّها تختصر فكراً وجدلاً تربوياً وتعليمياً كان قد وجد له متسعاً من النقاش بين كبار مفكري العرب المسلمين، ويكون "ابن طفيل" من خلال القصة الفلسفية، قد أعطى منهجاً يقابل النظرية في التربية الطبيعية، أو رسم الغايات القصوى للتربية التي تحصل ذاتياً من دون وجود وحي وتشريع سماوي، تربية تكفي بوجود عقل بشري يملك كل الاستعدادات للوصول إلى الغاية المنشودة بشرط توفر شروط موضوعية يضعها "ابن طفيل" لتلميذه "حي" منذ البداية.

أ- تربية "حي" المراحل والمنهج والوسائل:

إنّ السؤال الذي لا بد من طرحه لمساءلة فلسفة "ابن طفيل" ومن ثمّ منهجه التربوي، هو ماهي الغاية القصوى التي ينشدها في تلميذه "حي"؟ وهل "حي" التلميذ هو مثال كل إنسان في التربية السليمة وفق الطبيعة؟ أم أنّه نموذج منفرد؟ ومن خاصّة الناس؟ فقط؟ وبالتالي نكون أمام تربية ذوات منفردة خارج كل الأطر الاجتماعية وأدوات الضبط؟ أم أنّ رسالة "ابن طفيل" هي رسالة تربوية عليا أراد بها إعطاء نموذج الإنسان الذي يريد الحقيقة والوصول إلى الكشف والمشاهدة؟ وبالتالي يكون هذا النموذج مثالياً وغير متوفر للعامة والجمهور؟.

إنّ هذه الأسئلة غير كافية في الواقع أن تزيل وتفك الرموز والحكايا من وراء القصة، لأننا بصدد معالجة الجانب التربوي دون الغوص في الدلالات الفلسفية والصوفية للقصة.

يذهب "ابن طفيل" إلى اعتبار الطبيعة كتاب يحمل من الشروط الموضوعية وأنّ "حي" هو الذي يقوم بقراءة هذا الكتاب، وهو ليس من ورق وإتّما تجارب وممارسة وتأمّل وصراع بين المحسوس والمعقول، بين الجسم والنفس بين المادة والروح. وقد اختار لتلميذه "حي" الطبيعة لأنّها في نظره مناسبة لطبيعة نمو الإنسان منذ الولادة إلى غاية سن متقدمة حيث يستطيع استعمال عقله ويتمكن من ولوج حياة النّظر والتأمّل، ويحقق الغايات القصوى التي لأجلها وجد وبالتالي يكون "ابن طفيل" قد وضع مسبقاً في تصوّره للغاية وهي الوصول بـ "حي" إلى الكشف و إلى التوحيد ومعرفة الله دون الاستعانة بالوحي الجاهز أو التقليد الإيماني. فكان "حي" "رمزاً للعقل الذي هو أداة صالحة لإدراك تلك الحقيقة التي اختلفت السبل المؤدية إليها، تلك القوة النظرية التي خصّ بها الله بني البشر وبها ميّزهم على سائر خلقه"<sup>(3)</sup>

1-مراحل تربية "حي بن يقظان":

يضع "ابن طفيل" بذكائه الفلسفي الوقّاد تلميذه "حي" في ظروف تصوّرها مسبقاً للوصول به إلى المرحلة الأخيرة والطبيعية للإنسان حيث يدرك الحقيقة، لذلك نجده يستعمل من الطرق والوسائل والأساليب المنهجية المناسبة لهذه الغاية، حيث راعى في ذلك كل ما يمكن أن يتطرق للإنسان في نموّه وعلائقه وتفكيره وأبعاده المختلفة، [بيولوجية نفسيه، فكرية واجتماعية] بالرّغم من التحفّظ الكبير من المجتمع الذي يراه سلبياً على تلميذه ومعيقاً لاستمراره نحو غايته الحقيقية.<sup>(4)</sup>

أ/ المرحلة الأولى: بغض النّظر عن حقيقة "حي" داخل القصّة، فإنّنا نجده يوفر له الشروط الطبيعية بداية من الجزيرة ذات الجوّ المعتدل، إلى الظبية الحيوان التي تقوم مقام الأم المرضعة والتي تعطيه من الحنان والرعاية، إلى حصول التآلف بينه وبين الظبية والذي يعبرّ عنه بالصراخ كأنفعال وردّ فعل عند اختفائها أو نداءها.

إنّ هذه المرحلة التي تبلغ مدة عامين يكون فيها الطفل "حي" في مرحلة بيولوجية بحتة بالإضافة إلى ذلك، فإنّه سوف يتمرنّ على المحاكاة من الطبيعة وفق ما تفعله الحيوانات من أجل التكيف.<sup>(5)</sup> بالإضافة إلى "بعض العواطف [التقبل الرفض ...] الإقبال على أشياء ورفض أشياء أخرى"<sup>(6)</sup>. كما يكتسب بعض العادات والممارسات، من [كلام ونطق وحركات كالمشي والتنقل]، فهذه المرحلة يتهيأ فيها "حي" للحياة "فتربّي الطفل ونما واغتذى بلبن تلك الطيبة إلى أن تمّ له حولان، وتدرّج في المشي وأنعرفكان يتبع تلك الطيبة"<sup>(7)</sup>

ب/ المرحلة الثانية: وتمتد هذه المرحلة من السنة الثانية حتى السابعة من العمر، في هذه المرحلة "ينتقل بنا "ابن طفيل" مع "حي بن يقظان" من المرحلة البيولوجية التي تتميز بالقصور الذاتي والعجز عن تأمين أبسط الحاجات إلى مرحلة يتجاوز بها بعض من جوانب القصور الذاتي"<sup>(8)</sup>. حيث يصبح قادراً على التكيف مع ظروف البيئية ويستعمل أعضائه في العدو والحركة، واكتشاف يديه واستعمالهما، وكذا نموّه النفسي والذهني "فكان له عن طريق الملاحظة والمقارنة والمشاهدة والتفكير والتأمل وبالديالكتيك الذاتي أو مع البيئة الخارجية ما مكنه من تحقيق بعض ذاته، وكان له ماهو ضروري وأساسي ليحفظ بقاءه واستمراره في تلك المرحلة"<sup>(9)</sup>

هكذا تكون الطبيعة المفتوحة أمامه لكنّها ملغّزة قد كونت لديه بعض المفاهيم العقلية المتأتية عن الملاحظة والتفكير مثل فصل ذاته عن الآخرين من الحيوانات والنباتات، السعي لتحقيق ما هو أساسي وضروري للحياة، حدوث بعض المفارقات في ذهنه تجاه ما يشاهده من اختلاف في الكائنات: حيوان، نبات، جماد، وغيرها هذا بالإضافة إلى نمو جوانب انفعالية وعاطفية تجاه الأمور الإيجابية مثل عطف الطيبة وسخائها عليه، وعواطف سلبية كالكراهية نحو قساوة العالم الخارجي نحوه<sup>(10)</sup>

ج/ المرحلة الثالثة: وتمتد من السنة السابعة حتى الحادية والعشرين من العمر:

- بعد أن يكون "حي" قد تجهّز لمرحلة جديدة من النمو سوف تكون هذه المرحلة من أطول المراحل، حيث تتلاحق فيها كل جوانب النمو، وتظهر فيها السمات الأساسية والجوهرية للإنسان في عدة مستويات [عاطفية، جسدية، عقلية، وفكرية].

- فعلى مستوى الجسد: فإنّ "حي" في هذه المرحلة سوف يبدأ في التمييز بين الجسد وسبب الحياة في هذا الجسد أي وجود "الروح" ويكتشف طبيعة وما هية كل منهما ، وعلاقة كل منهما بالآخر، وعن الجسد يقول "فصار عنده الجسد كله خسيّس لا قدر له"<sup>(11)</sup>، ويضيف "لم يخرج-أي الجسد- عن كونه آلة يؤدي وظائف لما هو أشرف منه وأكبر قيمة وهو الروح"<sup>(12)</sup>

كما اكتشف يديه ودورهما في تحقيق أغراض كثيرة "رأى يديه تفي بكل ما فاته من ذلك"<sup>(13)</sup>، واكتشف طبيعة الحواس ودورها بالنسبة له مقارنة مع بقية الحيوانات، وكذا طبيعة المعارف التي تحققها هذه الحواس للإنسان، فبدونها لا يستطيع الإنسان إدراك ما يحصل بطريقها.

ففي هذه المرحلة يصل "حي" إلى معرفة الجسد وما هيته وطبيعة، ودور كل عضو من أعضائه، معرفة تبلغ من الكمال والشمول والإحاطة "ما يخوّله لأن يتعامل مع هذا البعد من الشخصية الإنسانية ألا وهو الجسد بما تقتضيه طبيعته وماهيته"<sup>(14)</sup> يقول "ابن طفيل" "وأنّ جميع الأعضاء إنّما هي خادمة له "الروح" أو مؤدية عنه وأن منزلة ذلك الروح في تصريف الجسد كمنزلة من يحارب الأعداء بالسلاح التام، ويصيد جميع صيد البحر والبر، فيمد كل جنس آلة يصيد بها"<sup>(15)</sup>

أمّا عن علاقة الجسد بكل أعضائه بالروح "فأيّ عضو عدم هذه الروح بسبب من الأسباب تعطلّ فعله وصار بمنزلة الآلة المطروحة، التي لا يصرّفها



الفاعل ولا ينفع بها فإنّ خرج هذا الروح بجملته عن الجسد أو فني أو تعطلّ بوجه من الوجوه تعطلّ الجسد كله وصار إلى حالة الموت"<sup>(16)</sup>، وعلى المستوى العاطفي والانفعالي، فإنّ "حي بن يقظان" ينفعل ويتفاعل وتنشأ لديه عواطف وميول وكراهية بحسب المواقف والمؤثرات والحوادث، ولن يستمد عواطفه من المجتمع، وإنّما تنمو بداخله عواطف وفق الطبيعة البشرية، وأولها كانت ارتباطه بالطبيعة التي مثلت له الأم الراعية وسبب للبقاء، كما سوف يأخذ عن الغراب درساً وخبرة في دفن صاحبه "من أحسن ما صنع هذا الغراب في مواراة جيفة صاحبه، وإن كان قد أساء في قتله إيّاه وأنا كنت أحق بهذا الفعل بأمي (أي الدفن)"<sup>(17)</sup> بمعنى أنّ "حي بن يقظان" له من العواطف الطبيعية الإيجابية، كما يوحي اشمزازة من القتل على أنّه فعل شر وما هو بمتأصّل في الإنسان وبالتالي فالعواطف والأخلاق تنشأ في الإنسان، أو هو مفطور على التمييز بين فعل الخير وفعل الشر، وأنّ الأخلاق التي تسود في المجتمع مصطنعة في غالبيتها وتزرع الشر وتدعي فعل الخير.

هذا بالإضافة إلى ذلك التآلف الذي ينشأ بين "الطبيعة" و"حي" ثم بينه وبين بقية الطباء والحيوانات المشابهة دليل على اجتماعية الإنسان "فكان يألف الطباء ويحن إليهما لمكان ذلك الشبه"<sup>(18)</sup>

أمّا على المستوى الفكري: فإنّ "ابن طفيل" ونظراً لثقافته الفلسفية الواسعة سوف يتجه بتلميذه نحو إدراك الحقائق والماهيات والتمييز بين ما هو حسّي وما هو عقلي بعد أن استوفى أو قارب نموّه الجسدي والعاطفي أي بلوغ الوظائف الحسّية والانفعالية والعقلية درجة من التكامل والنمو تجعله يستطيع أن يقوم بفعل التجريد "إذ بلغ به درجة إدراك الحقائق ومقدمات ومقولات أساسية وضرورية لما سيلمها ويتبعها من إدراكات، وحقائق أكثر تجريداً وأعمّ فائدة، وأشمل علائق ومتفرعات"<sup>(19)</sup>.

ومن هذه الحقائق:

- تمكّن من الكشف عن العلاقات بين أشياء متنافرة، متعددة ومتباعدة [علاقة الروح بالجسد، وأعضاء الجسد نفسه كوحدة]<sup>(20)</sup>. المكونات والفوارق البيولوجية.

- ربط الإدراكات والمعارف بالوسائل المؤدية إليها، ربط الإدراكات الحسية بالحواس، وإذا تعرّضت الحواس لعائق تعطلت الإدراكات التي تأتي عن طريقها [الحواس]<sup>(21)</sup>. أدوات الاتصال بالعالم الخارجي والخبرة الناتجة عنها.

- توصل إلى الفصل بين مبدئين: الحركة [إلى أعلى و أسفل] والسكون، وبين التعدّد والوحدة، بالكشف عن الخصائص المشتركة بين الكائنات المختلفة من ذلك خصائص المادة، ووصف الجسميّة، طول عرض عمق<sup>(22)</sup>. العلاقات بين الأشياء، أو ما نسميه اليوم بالعلوم الفيزيائية.

- كما توصل إلى معرفة ماهية وخصائص الأجسام والعناصر بطرق تجريبية مباشرة [الماء، التراب، الهواء، النار، الجسد، الروحي]. النباتي والحيواني ومن ثم الفكر<sup>(23)</sup>. العلاقات بين العناصر والمكونات، وهو مجال العلوم الكيميائية.

- اكتشاف عالم الكون والفساد: تحلل العناصر وتحولها الكيميائي، من حالة إلى أخرى تختلف عنها ماهية وخاصية تحول الماء إلى بخار، النار إلى قوة معرفة والتراب إلى طين. هذا ما يطلق عليه بالتفاعلات الكيميائية.

- مبدأ الفصل بين الهيولى والصورة في الأجسام وهو مبدأ أرسطي أراد ابن طفيل كمرحلة متقدمة في تلميذه نحو الصعود والارتقاء، هذا الفصل بين الشكل والمضمون بين العنصر وماهيته، تحوّل الطين من شكل إلى آخر يختلف عنه، والماء والتراب والهواء<sup>(24)</sup>.

- الكشف عن مبدأ العلّية أو السببية فكل تحوّل في جسم من حالة إلى حالة، بالرغم من أنّ الهيولى واحدة والصورة هي المتغيرة، لا بد له من فاعل أو مسبب<sup>(25)</sup>.

د/المرحلة الرابعة: من الحادي والعشرين إلى الثامن والعشرين: بعد أن استطاع "حي بن يقظان أن يدرك" النظام الحسي والمعرفة<sup>(\*)</sup> التي تأتي عن طريقه، تأكد له أنّ العالم المادي الحسّي يعيق الفكر على إدراك الحقائق الأبدية لذا يسعى جاهداً على الارتقاء بذاته عن طريق التأمل والتجديد والغوص فيما وراء الطبيعة الحسّية، سوف يتحول إلى عالم الأجسام السماوية، ثم العالم العلوي المجرد عن كل مادة وكل حس، عالم الرّوح والعقل "ليبلغ في هذه المرحلة من الحقائق العلوية ما لم يبلغه المرء إلا إذا تجرد من جسده المادي [الخشيس] ومن إدراكاته الحسية، إنّه عالم المشاهدة، عالم الشوق والسعادة"<sup>(26)</sup>، ففي هذه المرحلة الأخيرة يبلغ "ابن طفيل" بتلميذه حي "بن يقظان" أقصى درجات المعرفة، أو السعادة حيث يلتقي مع الشرع، العيان بالوحي لينتهي بعدها دور العقل<sup>(\*)</sup> و يبلغ قدراً يعجز عنه الوصف، ليلج عالم المشاهدة والكشف، و يبلغ عندها العلم الإلهي "الذي لا يقال فيه كل ولا بعض ولا ينطق في أمره بلفظ من الألفاظ المسموعة إلا توهم فيه شيء على خلاف الحقيقة، فلا يعرفه إلا من شاهده، ولا تثبت حقيقته إلا عند من حصل فيه [عجائب المشاهدة]..."<sup>(27)</sup>

هـ-المرحلة الخامسة: من الثامنة والعشرين إلى سن الخمسين: يدخل "ابن طفيل" تلميذه إلى المجتمع الذي لم يعرفه قط، ولم يكن للمجتمع أي دور في عملية ارتقائه نحو الحق، حيث بلغ في عزلته "مرحلة المشاهدة القصوى والسعادة الأبدية التي كان يفتقدها كلما رجع إلى الجسد وحرّم من المشاهدة بسبب المعيقات الفكرية أو الجسدية"<sup>(28)</sup> كما بلغ "درجة من الرياضة النفسية والفكرية تسنّى له المشاهدة والوصول كلما شاء ذلك واشتاق إليه"<sup>(29)</sup> يقول "ابن طفيل" "حتى صار بحيث يصل إليه متى شاء، فكان يلزم مقامه ذلك ولا يثني عنه إلا لضرورة بدنه التي كان قد ملها، حتى كاد لا يوجد أقل منها، وهو في

ذلك كله يتمنى أن يريحه الله عز وجل من كل بدنه الذي يدعوه إلى مفارقة مقامه ذلك، فيتخلص إلى لذته تخلصاً دائماً<sup>(30)</sup>

إلى هنا يكون "حي بن يقظان" قد بلغ غايته دون أن يعرف المجتمع أو الوحي، فيلتقي بنموذجين مختلفين من المجتمع الأول مؤمن بالوحي لكنّه أخذ طريقاً تأويلياً برهانياً في الفهم والغوص بالعقل والاستدلال، والثاني ليس لديه تلك القابلية للغوص في الباطن فهو مكتفي بالظاهر فالأول هو "أسال" الذي يحيل إلى حياة التأمل والتأويل أي أنّه استعمل استعداداته العقلية الخاصة في فهم "الوحي" الذي بلغه فكان طريقه للوصول إلى الحق، والثاني هو "سلامان" والذي رأيه رأي الجمهور ولا يأخذ إلا بالظاهر ويؤدي العبادات والواجبات تجاه خالقه وحياته وقد أعطى "ابن طفيل" هذين النموذجين وموقفهما وتعاملهما مع الوحي - نموذج العزلة والانفراد من أجل الخلاص، ونموذج "ملازمة الجماعة- ولما كانت شخصية تلميذه "حي" تتميز بالحكمة والغوص في البحث فقد اختار له النموذج الأول وهو رفقه أسال "حيث يرافقه ويتفان فيما بينهما، فكرياً وعملاً ومنهجاً حياتياً فتكون العزلة، والانفراد هما طريق الخلاص التي اختارها ابن طفيل لتلميذه "حي" بعد أن وجد في المجتمع والتعايش فيه ما يضلّ ويهلك"<sup>(31)</sup>

ولأنّ العامّة من الناس أو ما يسميه "الجمهور" يصعب معهم الهداية والثبوت على الصواب من الرأي، وهو في الحقيقة رأي أغلب فلاسفة الإسلام في عدم إقحام العامة في التأويل حتى لا تشتت أفهامهم ويتفرقون في دينهم كونهم ليسوا كلهم مؤهلين لذلك، من هذا المنطق فإنّ محاولات "حي" سوف تفشل في هداية الناس، ويختار له "ابن طفيل" "أقرب الناس إلى الذكاء من جميع الناس... وإنّه وإن عجز عن تعليمهم فهو عن تعليم الجمهور أعجز"<sup>(32)</sup>. بل إنّ "حي بن يقظان" يعترف بعجزه ويعتزلهم قبل أن يعتزلوه، حيث أنّه "كلّما ترقى بهم انقبضوا عنه وتشمئز نفوسهم منه... لنقص في فطرتهم، لا يأخذون من

الحق من طريقه ولا يأخذون بجهة تحقيقه ولا يلتمسونه من بابه... فيئس من إصلاحهم وانقطع رجاؤه من قبولهم"<sup>(33)</sup> لهذا سوف يعود "حي بن يقظان" و زميله "آسال" من حيث جاءوا إلى حياة العزلة وذلك "يأساً من إصلاحه - المجتمع- وخوفاً على نفسيهما من الضلال"<sup>(34)</sup>. ويرجع ذلك في نظر "ابن طفيل" إلى سببين:

أ- سبب فكري: وهو التحام الفكر بالمادة وصعوبة التحرر من المحسوسات، والميل إلى الأخذ بالظاهر دون الباطن "كي لا يجهد ذلك الفكر نفسه في التأويل والخوض إلى الباطن مما نتج عنه صعوبة العودة به إلى طبيعته و فطرته التي فطر عليها"<sup>(35)</sup>

والأمر هنا أشبه بطرح "روسو" في فساد الفطرة عند الخضوع لتربية فاسدة، أو "كانط" الذي يقرر أنه من الصعب انتزاع التربية الفاسدة في الراشدين لأنهم لم يكتشفوا بأنفسهم غاية إنسانيتهم التي افتقدوها عبر التدجين والتقليد.

ب- الحياة الاجتماعية: لعل انشغال البشر بالحياة الاجتماعية وكل ما تحتويه من زينة وبهرج ومغريات حسية ترتب عنه في نظر "ابن طفيل" "الانشغال بالباطل والإعراض عن الحق"<sup>(36)</sup>، وهو ما جعل الأمر صعب على البشر التخلي عما هم فيه من حياة مادية مترفة توصلوا إليها نتيجة الترقى في الانغماس في ملاذ الحياة وإتباع الشهوات.<sup>(37)</sup>

لقد صور "ابن طفيل" المجتمع من خلال تلميذه "حي" "إن أكثرهم في منزلة الحيوان غير الناطق، علم أنّ الحكمة كلها و الهداية والتوفيق فيما نطقت به الرسل ووردت به الشريعة لا يمكن غير ذلك، ولا يحتمل المزيد عليه فلكل عمل رجال وكل ميسر لما خلق له، لقوله تعالى «سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً» [الأحزاب 62]».<sup>(38)</sup>

إنّ الغاية التي وضعها "ابن طفيل" لـ "حي بن يقظان" "تتلخص باعتزال المجتمع، والانصراف عن الجسد ليتسنى له المشاهدة (الوصول) التي حقق بها

سعادته وغاية وجوده"<sup>(39)</sup> وسؤالنا ما هو منهج "ابن طفيل" التربوي؟ من خلال القصة الفلسفية؟ كيف وصل "حي بن يقظان" إلى الحقيقة دون تدخل بشري؟، دون معرفة مسبقة [تربية اجتماعية، وحي]؟ وكيف ارتقى إلى ذلك دون لغة؟

يجدر بنا أن نوضح أمراً، وهو أنّ "ابن طفيل" يكون قد رسم هذا الموضوع في فكره، وجسّده من خلال "حي بن يقظان"، وهو بذلك أعطى فلسفته الاشرافية عدة أبعاد: الخاصية الفردية للمعرفة بنوعها البرهانية والاشراقية، وكذا اجتماعية الإنسان وحاجته إلى العقل وإلى الوحي، ومن ثم في نظرنا إلى التربية المستمدة من الارتقاء نحو الحقيقة في حالة العقل، ومن التأويل والغوص في الباطن في حالة النص (الوحي).

وحسب "مالك بن نبي" فإنّ الطفل يتدرج في عوالم ثلاثة: الأشياء، الأشخاص، الأفكار، ففي رأيه أنّه "لا يستطيع الإنسان المنعزل أن يعيش طويلاً في وحدته: دون أن يصنع لنفسه وفي فترة من الزمن محدودة بالضرورة التجربة الأزلية التي بها يتكيف المجتمع مع بيئته"<sup>(39)</sup>. و يضيف قائلاً "فإنّما أن تبدأ مغامرته انطلاقاً من صفحة بيضاء خالية من الأفكار مثل (حي بن يقظان) وإنّما انطلاقاً من صفحة بيضاء خالية من الوسائل والأشياء..."<sup>(40)</sup> لكنه يؤكد -مالك بن نبي- أنّه من الصعب إعادة تكييف الطّفّل بعد عزله منذ الولادة عن المجتمع، بل يعتبره أمر بعيد الاحتمال.<sup>(41)</sup>

من هذا المنطلق فإنّ تصور "ابن طفيل" هو تصور مبرّر<sup>(\*)</sup> على الأقل من الناحية التربوية، فالإنسان الذي أراده هو إنسان يريد بلوغ حقيقته كاملة غير منقوصة، أمّا الإنسان الذي يعيش في وسط المجتمع فلا بد له من التقليد والانغماس في الحسيات ويندمج ضمن القطيع بلغة "نيتشه".

يتصور "ابن طفيل" الطفل بفطرة سليمة مزودة باستعدادات فطرية، يكفي فقط أن نوفر لها مجموعة شروط موضوعية [الحاجات الأساسية] كي تنمو وتتجه نحو الغرض الطبيعي الذي وجدت لأجله.

فالجسد يحتاج إلى التغذية، والكساء، والرعاية ينمو ويبلغ كماله ويؤدي الوظيفة المنوطة به لأن كل عضو أو حاسة سوف يحتاجها بالمقابل لتؤدي وظيفة هي أكمل منها، والحاجات الأخرى تنمو معه وتتطور، ومن ذلك أشرفها العقل الذي هو استعداد فطري ينزع نحو المعرفة والتحصيل والاكتشاف، ومهمته النهائية التحرر من المعيقات [كالماديات والمحسوسات] التي تعيقه عن تحقيق ماهيته كإنسان.

أما العواطف والانفعالات بالرغم أنها استعداد فطري إلا أنها تتكون بالتدرج نتيجة الخبرات والعلائق التي تنشأ باحتكاك الفرد مع محيطه الخارجي.<sup>(42)</sup> أما عن الجانب الاجتماعي كما أشرنا في السابق فإن "ابن طفيل" يرى فيه معيقاً للوصول للغاية المنشودة. نعتقد أنه يرى فيه اعوجاجاً وبالتالي سوف يؤثر على الفطرة السليمة للطفل ويوجهه الطريق الخطأ طريق التقليد والانغماس.

- فمنهجه واضح المعالم ومحدد الأهداف والوسائل فكيف يصل إلى عالم الأفكار [الحقيقة] وهو لا يملك أي فكرة إلا الطبيعة؟.

2- المنهج التربوي التعليمي: اتبع "ابن طفيل" في ذلك منهجاً متدرجاً اعتمد فيه: أ- الانتقال من البسيط إلى المركب، ومن السهل إلى الصعب ويظهر ذلك من خلال التجارب التي خضع لها "حي" منذ البداية والتي بدأت تتطور نحو ما هو أصعب وأعمق.

ب- الانتقال من المحسوس المرئي إلى غير المرئي، مثال ذلك الطريقة التي توصل بها "حي" إلى كشفه عن وجود الروح من خلال كشفه أولاً عن موضع القلب في

"الظبية" ثم الحرارة التي في القلب ثم النَّار كمصدر للحياة، ثم إلى الروح كأساس محرك للجسد.

ج- الانتقال من المحسوس إلى المعقول بفعل التجريد وذلك عندما يتوصل إلى إرجاع "الكثرة إلى الوحدة، ومعنى الجسمية، ومعرفة ماهية النفس الحيواني والنباتي، ثم الفصل بين الهيولى والصورة، والتوصل إلى مبدأ العلية"<sup>(43)</sup>.

د- الانتقال من الجزئي إلى الكلي ومن الخاص إلى العام، وقد استعمل "حي" الأدوات المنطقية من استنتاج واستقراء وتحليل وتركيب، بل حتى المنهج التجريبي عندما يفترض ويتساءل ثم يبحث ويجرب ويستقصي ويرتقي في ذلك من المعلوم إلى المجهول. "كان أسلوب "حي" في الترقى في المعارف والوصول إلى الحقائق التي كان يسعى إليها بالمقارنة حيناً، والتجربة المباشرة حيناً آخر، والتحليل والتركيب أحياناً أخرى"<sup>(44)</sup>.

وخلال حركة الإرتقاء والنمو هذه، كانت تحرك "حي" مجموعة من الحاجات والدوافع وقَّرها "ابن طفيل" لتلميذه لدفعه إلى الغاية النهائية:

أ- الحاجات البيولوجية: وهي دوافع أساسية جسدية حيوانية غريزية تهدف إلى حفظ البقاء، هذه الحاجات أثبت علم النفس والبيولوجيا الحديثة أهمية توفيرها وتوجيهها نحو النمو والارتقاء "فلما كانت المرحلة الأولى من نمو "حي بن يقظان" عبارة عن حياة بيولوجية بحتة، وكان على "حي" أن يسعى وراء هذه الحاجات ليحفظ بقاءه [مأكل، ملابس، مأوى، حماية النفس، والدفاع عنها] وبالتالي الضرورة الجسدية كمرحلة أولى والحفاظ عليه ضرورة طبيعية لاستمرار الحياة"<sup>(45)</sup>.

ب- الميل والاستعداد للكشف والمعرفة والحقيقة وراء الظواهر والأشياء والأحداث: وهذه حقيقة فطرية في الإنسان، فما الجسد إلى وسيلة فإذا ما توفرت هذه الوسيلة، نمت نمواً سليماً، أعطت هذا الميل قوةً ودفعاً نحو كشف أغوار الحياة والوجود.<sup>(46)</sup>



إنّ الطبيعة أهم مصدر ألهم "حي" الخبرة والمعرفة وتوفرت له الشروط الموضوعية، فكانت هذه البيئة موضوع معرفة بالنسبة له، وعن طريقها يصل إلى ما هو أهم إلى الوحدة والكشف عن الحقيقة.

هكذا يكون "ابن طفيل" قد توصّل إلى قناعة وتصوّر مسبق للغاية القصوى للإنسان في هذه الحياة، لذا كانت التربية التي اقترحها في نظره هي النموذج الأمثل لتفادي بعض الانزلاقات التي يقع فيها من قصّر نظره أو أعاقته البيئة الاجتماعية المتوارثة والمحصورة داخل تحقيق الغايات الدنيوية، فالطبيعة هي الأنسب لهذا الإنسان ليصير نحو كماله النظري والأخلاقي إلى الإشراق.

واتجاهه التربوي هذا، ينم عن عدم اقتناعه بتربية عصره، وهو رسالة غير مباشرة لمعاصريه أمثال الغزالي وغيرهم من أجل توضيح قدرة العقل على إدراك ما جاد به الأنبياء من حقائق دون الإطلاع عليها، أو على الموروث الاجتماعي.

و"ابن طفيل" في تصوره التربوي هذا يكون قد سبق الكثير من الفلاسفة والمربين في العصر الحديث الذين نادوا بالتربية الطبيعية وانتقدوا التربية الاجتماعية و التديجينية. ومن هؤلاء "روسو" الذي أفرد كتاباً تربوياً خصّ به الطفل وتربيته الطبيعية تحت عنوان "إميل" Emile، بقوله "كل شيء من يدي الله صالحاً وخيراً، وكل شيء يبقى بين يدي البشر يلحقه الفساد".<sup>(47)</sup> بأسلوب يملأه الخيال والشاعرية، وهو ما يزيدنا قناعة بقوة هكذا أساليب خاصة أمام دوغمائية البيداغوجيات التي ما تفتأ تتحول إلى اعتقادات راسخة.

انطلاقاً من هذا يمكننا القول "أن التربية الطبيعية هي مفهوماً واصطلاحاً مقابلة للتربية الاجتماعية، وبعبارة أخرى إنها دعوة إلى تربية تتجاوز المجتمع وتتخطاه بعد أن تكون قد رفضت ما هو فيه من شرور وشوائب، تتناقض مع قداسة الإنسان وطبيعته الخيرة".<sup>(48)</sup>

والتربية الطبيعية تربية سلبية تنادي بعدم تدخل الإنسان والمجتمع في التربية، وترك الأمر للنمو والارتقاء الطبيعي للملكات والقوى المختلفة نحو كمالها واحترام الطفولة. وذلك بتوفير شروط و وسائل وخبرات مباشرة وفق الطبيعة، فإن "حي بن يقظان" لم يجد المعرفة والخبرة جاهزة، وإنما سوف يتعلم كل شيء من الطبيعة [الحساب، والفلك والتشريح والطب، والجغرافيا، والتصوف...].

وكان ذلك كله عن طريق التجربة الفردية والذاتية، فلم يدع وسيلة تربوية أو تعليمية إلا ودمجها مع كل ما يتناسب مع طبيعة الأمور والمواضيع التي هو بصدد البحث والتنقيب عنها [المادة، الروح، الماهية، الكون، العلة<sup>(49)</sup>] وتأتي فلسفة "ابن طفيل" التربوية من خلال هذه القصة التعليمية كمنهج تربوي في نفس الوقت وهو جواب لمعاصريه<sup>(\*)</sup>، حيث رسم الخطوط والفواصل الكبرى للتربية، وكذا العلاقة بين الاتجاه البرهاني والاتجاه العرفاني والبياني وعلاقة كل منهم بالعامّة أو الجمهور من الناس.

كما نجده يدمج كل الاتجاهات والمذاهب داخل العملية التربوية [ميثالي، واقعي، وجودي، براغماتي...] كما يراعي ذلك الانتقال السلس من عالم الأشياء والوسائل إلى عالم الأفكار، ومن العيان إلى النّظر، ومن مجال الفكر إلى التطبيق، فلا شك أنه أولاً كان يحمل تصوراً فلسفياً تربوياً صاغه في شكل منهج قصصي مدمج ومتسلسل الأهداف والغايات. "فكان العقل بحكم طبيعته، كما أنّ الأشياء ذاتها بماهيتها الأداة والوسيلة التي اختارها لينتقل بتلميذه من العالم المحسوس إلى العالم المعقول، ومن ثم إلى عالم المشاهدة والإشراق، وإن كان قد تخلّى عن العقل في مرحلة متأخرة [المشاهدة] هذا العقل ذاته كان في مرحلة ما الجسد الذي عبر عليه وبه استعان لينتقل إلى مرحلة تليها"<sup>(50)</sup>.

### 3- مقاربات:

2- التربية بين الوسائل والغايات: انطلاقاً من هذا التصور التربوي "لابن طفيل" نتساءل ما هو الهدف من عرضنا لفلسفته التربوية؟ وماذا يمكن أن نفيد منه؟ قد يقول قائل أن القصة مجرد خيال وتمثل له وهذه حقيقة لكن ألا يمكن أن يكون لهذا التصور معنى في التربية العربية الإسلامية؟ في تصورنا نجد أنه أعطى وضوحاً من حيث:

أ- الغاية التربوية: المتأمل في القصة يجد تسلسلاً واضحاً وجلياً من حيث الغايات من أبسطها إلى الغاية القصوى والتي هي الوصول إلى الحقيقة الأبدية.  
ب- المنهج: استعمل "ابن طفيل" منهجاً تربوياً صارماً يخدم الغاية وقسم له المراحل التربوية ولكل مرحلة ما يناسبها من العلوم والمعارف، ويبلغ به في كل مرحلة كمال من الكمالات جسمية كانت أو عقلية.

ج- الوسائل: لم يضع "ابن طفيل" وسائل مصطنعة ولا تراكيب جاهزة أو كتب مصنفة، بل كانت الطبيعة حية أمامه هي كتبه، والوسائل هي ما تجود به هذه الطبيعة الكونية من أشياء، أحداث، ظواهر ألغاز عليه فكها.

د- المجتمع: يمثل كل من "أسال" و"سلامان" المجتمع، داخل هذا المجتمع هناك العلاقات الاجتماعية وما ينشأ عنها من ماديات وصنائع و وسائل منها "اللغة"، وبالتالي فاللغة اجتماعية ولكل مجتمع لغته، فلغة "حي" في الطبيعة هي رموز وإشارات اكتشفها في الطبيعة، وهذا يدل على أنه ليس هناك نموذج واحد للغة فهي مجرد وسيلة أو أداة للمعرفة، وأنه استطاع تعلمها بمجرد لقائه وصحبته لرجل الدين والحكمة "أسال".

هـ- كما تنم القصة على أن التربية التي يخضع لها الجمهور من الناس ليست هي نفسها التي تكون للخاصة منهم، وبالتالي تختلف الغايات القصوى بين الخاصة من الناس والعامة، وإدخال العامة في الحقل المعرفي للخاصة غير مضمون النتيجة، ومن ثم على هؤلاء الخاصة في منظورنا أن يرسموا الفلسفة

التعليمية والتربوية للعامّة دون إخراجها عن سياقها أو حقلها المعرفي الخاص بها.

وبالتالي يمكن الذهاب مع "ابن طفيل" إلى القول أنّ هناك صنف من العلم والمعرفة هو متأتي بالطبيعة للإنسان يصل إليه بفكره إذا ما هو ساوق هذا الفكر عن طريق الممارسة والتأمل، وأنّ هناك صنف من العلوم ينقل نقلاً عن واضعيه تمثلت في العلوم الشرعية، وهناك علم الإشراق الذي يتجاوز كلا العلمين وهذا لا مجال لوصفه إلا لأهله والذين بلغوا درجة عليا من العلم والإيمان.

ويذهب "تيسير شيخ الأرض" إلى طرح تحليلات للقصة من عدة زوايا فهناك زاوية التوفيق بين الدين والعقل، ولعل لقاء "حي" مع "أسال" العالم عن طريق الوحي والتأويل يعبر عن هذه العلاقة بين الحكمة والشريعة، لكن لو كان هذا الأمر الوحيد المراد من القصة لما ذهب حي إلى أهل الجزيرة والتقاء العامّة ومحاولاته اليائسة لإبلاغهم الحقيقة، بل ينمّ ذلك على وجود تربية اجتماعية دينية: ف"ابن طفيل" لم يقف في قصته عند حدود بيان تطور حي، بل تطرق إلى بيان حال أهل جزيرة أخرى مجاورة لجزيرته، تربوا على عقائد ملّة صحيحة تأتت إليهم من بعض الأنبياء، فما علاقة تربية هؤلاء بتربية حي؟..<sup>(51)</sup>

إنّ هذا الانتقال من وضع إلى وضع ومن حال إلى حال إنّما "يطرح علينا مسألة جديدة هي مسألة علاقة الفرد بالمجتمع"<sup>(52)</sup> إنّ "حي" وجزيرته يمثلان الفرد الإنساني وعالمه، أمّا سكان الجزيرة الثانية يمثلان حياة الإنسان داخل الجماعة، وما ينتج عن ذلك الاجتماع من علاقات تصبح ضرورية وملزمة للفرد عن طريق أنماط التقليد والتوارث. أمّا ذهاب حي إلى الجزيرة المأهولة فهو التقاء الفرد العالم المتوحّد بالجماعة وتقاليدها ومظاهرها الاجتماعية.

وعلى هذا الأساس ووفق فلسفة التربية، نَمِيزُ مع "شيخ الأرض" نوعين من التربية: أولاً التربية الطبيعية الذاتية بالحكمة، وثانياً: التربية الاجتماعية الدينية بالشرعية (الوحي). "وهذا يعني أنّهما تلتقيان في النهاية"<sup>(53)</sup> ومن جهة أخرى يمكن وصف ذهاب حي بن يقظان إلى الجزيرة المجاورة، وإقامته بين سكانها، مجرد تحايل من طرف ابن طفيل لتوجيه نقدا اجتماعيا وسياسيا وتربويا، مستعملا الرمز القصصي: "فقد أراد "ابن طفيل" بذلك تشريح أحوال عصره الاجتماعية، وبيان فساد الأنظمة، وانحطاط الأخلاق، وتفسخ العقائد الدينية"<sup>(54)</sup>

وهو إذ يلاحظ هذا الفساد الاجتماعي والسياسي والأخلاقي إنما يشير إلى فساد في التربية، وأنّ تربية حيّ هي أحسن وأكمل من تلك التربية الاجتماعية، وفي نفس الوقت يستثني الخاصّة الذين ينفذون إلى الباطن مثل "أسال" لكن الفساد يقتصر على من يأخذون بالظاهر، ممّا يدل على أنّ التقصير في النّاس، ليس فقط في التربية الاجتماعية التي يخضعون لها، بالرغم من مسؤوليتها المباشرة في صياغة الأفراد، "لهذا نجد أنّ أسال نجا ممّا وقع فيه عامّة الناس وكان جديراً بمرافقة حي إلى جزيرته في طريق عودته إليها"<sup>(55)</sup>.

وانطلاقاً من هذه الملاحظات نتساءل: أليس من الأخرى إخراج التربية العربية الإسلامية من مجرد الطرح المحصور في الغاية الأخروية، خاصّة وأنّ هذه الغاية هي القصوى لوجود الإنسان، وهو مطالب بفهم وتأمّل وجوده، والتحكّم في نمط عيشه وتحسين مستواه وعلائقه؟ ثمّ أليس في القصّة تجربة فريدة متخيلة، ولكّنها ترسم الأبعاد الكبرى للحياة البشرية بين ما يستطيعه العقل وما جاء به الوحي السماوي دون تعارض؟ وماذا يمثل حي من خلال القصّة؟ هل يمثل الفرد الإنساني أم النوع الإنساني؟ وإذا كان من غير الممكن الفصل بين ما هو إنساني وما هو اجتماعي، لأنّ "الإنسانية بحد ذاتها جماعة ومجتمع واجتماع"<sup>(56)</sup>، ومن هنا يتعدّر القول بالتقاء الإنسانية بالمجتمع<sup>(\*)</sup>، "لأنه يفترض

انفصالاً ثم التقاء، وليس هناك انفصال أصلاً، ليكون هناك التقاء يليه<sup>(57)</sup>. وبالتالي فابن طفيل لا شك عبّر عن الفرد الإنساني وكل منازعه ومكوناته الطبيعية والفكرية ثم ينتقل إلى النوع الإنساني وما يحمله من تقاليد اجتماعية، ودينية ثم يعود إلى فرديته وعالمه الخاص.

القراءة الفلسفية المتأنية لقصة حي ابن يقظان، تأخذ القارئ إلى رسم صورة عامة عن الإنسان في كليته وليس في بعضه، وأن التجزيء الذي يطال الفلسفة المعاصرة يجتمع في إنسان ابن طفيل سواء من حيث العلم وتفرعاته ومناهجه، أو من حيث التأمل الفلسفي وجدليته نحو الحقيقة الأبدية وأبديتها الفردية لا الجماعية، حيث أن كل فرد يكتشف تلك الأبدية بمحض تأمله للحقيقة، ومن جهة التربية فهي تطرح تلك الثنائية بين الإنسان الفرد، والإنسان داخل الجماعة من البشر وما ينتج عن ذلك من علائق إجتماعية هي بمثابة حتميات تعيق العقل الفلسفي المتأمل. فنكون امام غايتين: تربية الفرد لذاته وبذاته، أم تربية الفرد للمجتمع وبالمجتمع !!!

خاتمة:

أياً كان السياق الذي كتبت فيه هذه القصة الفلسفية بالأساس، فإنه لا يمكن نفي الطابع التربوي لها، فابن طفيل بذكائه الفلسفي استطاع توظيف عناصر القصة توظيفاً يخدم الغاية التي ينشدها، فهو يريد أن يثبت أحقية العقل البشري في النفاذ إلى الحقيقة، دنيوية كانت أو أخروية، وأنه يمكن عن طريق تلك التساؤلات التي تنشأ في ذهن الإنسان وتتطور بالتدرج أن تصل إلى الأسئلة الكبرى مثل مصدر الحياة وخالق الكون وغيرها، ولكنه قبل ذلك عليه أن يتعايش مع الطبيعة ويكتشف فيها بالتجربة والبحث خصائصها وقوانينها، وأن عليه مسؤولية صعبة تمثلت في تنوير هؤلاء الذين لم يستطيعوا اكتشاف الحقيقة بمحض عقولهم، فهم دائماً في حاجة إلى من يرشدهم إليها، أو يقودهم بالرغم من الصعوبة في ذلك. فالتربية التي ينشدها فيها من الحرية

ومن التقنية ومن الفن ومن الأخلاقية والغاية القصوى هي الغاية الأخروية ، ذلك أنّ الحياة الاجتماعية حسب القصة تحدّد من إمكانات الإنسان المتفرّد بالرغم من حاجته إليها. ومن هنا فالمقاربة البيداغوجية لهذه المراحل يمكن أن تكون مرجعا مهما في بناء التعليمات وفي تسطير الطرق البيداغوجية في عمليتي التربية والتعليم.

#### الهوامش:

\* - تنسب القصة الفلسفية إلى "ابن طفيل" وهو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل القادسي، ولد في قادس إحدى المدن الصغيرة بالأندلس، ومات في مراكش عاصمة الدولة في عام 571هـ (1185م). عرف عنه اهتمامه بالكتب والمطالعة أكثر منه حبه للناس، ويذكر: ج.دي بور في كتابه "تاريخ الفلسفة في الإسلام" أنّ "ابن طفيل" عاش حياة مستقرة دون تقلبات "وكان في مكتبة مليكه العظيم يحصل كثيراً من العلم الذي يحتاج إليه في صنعته، أو الذي يرضي ميوله في المعرفة... وكان ميله إلى الاستمتاع بالتأمل أكبر من ميله إلى التأليف، وقلما يكتب... وكان أكبرهمّه أن يمزج العلم اليوناني بحكمة أهل الشرق ليطلع الناس برأي جديد في الكون. وقد دفعه إلى ذلك باعث من نفسه كما كان الحال عند "ابن باجة" وقد أثار اهتمامه أيضاً أمر العلاقة بين الفرد والمجتمع وما فيه من أراء غير ممحصّة؛ ولكنه ذهب أبعد من "ابن باجة": جعل "ابن باجة" المفكر المتوحد، أو طائفة صغيرة من المفكرين المتوحدين يكونون دولة، داخل الدولة، كأنهم صورة للجماعة كلها أو نموذج لحياة سعيدة، أمّا "ابن طفيل" فإنّه رجع إلى منشأ الجماعة [وهو الفرد]. "انظر" ج.دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريّدة مكتبة النهضة المصرية، ط5، القاهرة، ص373.

<sup>1</sup> - أحمد أمين، "حي ب يقظان"، سلسلة دوائر العرب، ط3، دار المعارف، القاهرة، 1966، ص 10-11.

<sup>2</sup> - محمد جواد رضا، العرب والتربية والحضارة، ص، 110.

\* كتبت قصة حي بن يقظان ثلاث مرات: من قبل ابن سنا اولا ، وابن طفيل ثانيا، ومن قبل شهاب الدين يحي ابن حبش السهروردي ثالثا، وقد وجهها كل واحد من هؤلاء المؤلفين وجهة

- فلسفية خاصة. ونحن نخص بالذكر هنا قصة ابن طفيل. [أنظر كتاب أحمد أمين "حي بن يقظان"، سلسلة دوائر العرب ط3، دار المعارف، القاهرة، 1966، ص 10-11]
- <sup>3</sup> - عبد الأمير شمس الدين، الفكر التربوي عند ابن طفيل في كتابه حي بن يقظان، الشركة العالمية للكتاب، ط1، بيروت، د.ت، ص 19.
- <sup>4</sup> - المرجع نفسه، ص 25-26.
- <sup>5</sup> - المرجع نفسه، ص 26.
- <sup>6</sup> - ابن طفيل، حي بن يقظان، بقلم كامل كيلاني، مطبعة المعارف، مصر، د.ت، 32.
- <sup>7</sup> - المرجع نفسه، ص 20.
- <sup>8</sup> - عبد الأمير شمس الدين، مرجع سابق، ص 27.
- <sup>9</sup> - المرجع نفسه، ص 27.
- <sup>10</sup> - عبد الأمير شمس الدين، مرجع سابق، ص 27-28.
- <sup>11</sup> - ابن طفيل، حي بن يقظان، المرجع السابق، ص 34.
- <sup>12</sup> - عبد الأمير شمس الدين، المرجع السابق، ص 28.
- 13 - ابن طفيل، المرجع السابق، ص 47.
- 14- عبد الأمير شمس الدين، المرجع السابق، ص 28. 29.
- 15- ابن طفيل، حي بن يقظان، المرجع السابق، ص 43.
- 16 - المرجع نفسه، ص 45.
- 17- المرجع نفسه، ص 35.
- 18- ابن طفيل، المرجع السابق، ص 36.
- 19- عبد الأمير شمس الدين، المرجع السابق، ص 30.
- 20- ابن طفيل، المرجع السابق، ص 42-43.
- 21 -عبد الأمير شمس الدين، المرجع السابق، ص 30.
- 22- ابن طفيل، المرجع السابق، ص 52-56.
- 23- المرجع نفسه، ص 56-57.
- 24- المرجع نفسه، ص 55.
- 25- المرجع نفسه، ص 57.

\* وقد اعتمد "ابن طفيل" في تعليم تلميذه، على عدة علوم ومعارف التي تساعده في الوصول إلى عدة علوم ذلك جلياً من خلال مساره منها [العلوم الطبيعية المفهوم المعاصر] التشريع



الذي قام به على الطبيعة ومعرفة أعضائها الداخلية عضوا عضوا، ووظائفها وعلاقة الحواس بالدماغ والأعصاب والقلب ومركزه وتكوينه...]. يتم هذا على أن "ابن طفيل" يجعل من العلوم والمعارف ضرورة لا بد منها للارتقاء نحو الحقيقة.

26- عبد الأمير شمس الدين، المرجع السابق، ص 31-32.

\*تميز ابن طفيل في منهجه الصوفي عن معاصريه، فرغم أن فلسفته مبنية على روح اعتزالية لكن: "أرادت أن تجعل العقل سلما إلى الله، والاتصال ثمرة نظر وتأمل وتنكرت للممارسة الصوفية من حيث أنها تحد من قوة العقل وتجعل الوصول إلى المشاهدة عن طريق الحدس والرياضة الروحية لا غير فالرياضة الذهنية والصوفية عند ابن طفيل هي إطلاق قوى العقل من المادة حتى إذا خف عنها ثقل تلك المادة تفهمت العوالم واتصلت بالعقل الفعال وذابت في الحق سبحانه وتعالى" وبالتالي فإن ابن طفيل لم يبلغ العقل حتى لحظة الوصول. (انظر: حنا الفاخوري خليل الجر، تاريخ الفلسفة العربية، دار الجبل، ج 2، ط 2 بيروت، 1982 ص 379-381.

27- المرجع السابق، ص 95.

28- عبد الأمير شمس الدين، المرجع السابق، ص 32.

29- المرجع نفسه، ص 32.

30- المرجع نفسه، ص 33.

31- عبد الأمير شمس الدين، المرجع السابق، ص 33.

32- ابن طفيل، حي بن يقظان، بقلم كامل كيلاني، مطبعة المعارف، مصر، د.ت، ص 72.

33- المرجع نفسه، ص 73-74.

34- عبد الأمير شمس الدين، مرجع سابق، ص 34.

35- المرجع نفسه، ص 34.

36- المرجع نفسه، ص 146. يورد عبد الأمير شمس الدين، نص ابن طفيل (حي بن يقظان) في نهاية الكتاب.

37- المرجع نفسه ص 146.

38- المرجع السابق، ص 148، 149.

39- المرجع نفسه، ص 42.

40- مالك بن نبي، عالم الأفكار، تر: بسام بركة وأحمد شعبو، دار الفكر للطباعة والنشر، ط 1، 1988، ص 26.

41- المرجع نفسه، ص 26.

42- المرجع نفسه، ص 26.

\* - نشير أننا بإرادنا هذه القصة التربوية من التراث العربي الإسلامي نحاول جاهدين من أجل إبراز كيف تعامل الفلاسفة أو نخبة المسلمين مع هذا التعارض على المستوى النظري في تحديد الغايات التربوية للإنسان، بمعنى إيجاد قاعدة تفاهم على المستوى النظري لدى الإنسان العربي المسلم، لوضع فلسفة تربوية ذات غايات واضحة.

43- نلاحظ أن هناك تخبط على مستوى تحديد الغايات في التربية العربية وهو ما سنلاحظه ونتطرق إليه في فصل آخر.

44- عبد الأمير شمس الدين، المرجع السابق، ص 41.

45- المرجع نفسه، ص 42.

46- المرجع نفسه، ص 43.

47- المرجع نفسه، ص 43.

48- جون جاك روسو، إميل في التربية، مرجع سابق.

49- عبد الأمير شمس الدين، مرجع سابق، ص 47- 48.

50- المرجع السابق، ص 51.

\* - في القصة إشارات نقدية إلى سابقه ومعاصريه مثل "ابن سينا" و "ابن باجة" و "الغزالي" رغم تأثيره بهم يقول «ثم خلق من بعدهم خلق آخر أحذق منهم نظراً وأقرب إلى الحقيقة، ولم يكن فيهم أثقب ذهنًا ولا أصحّ نظراً، ولا أصدق رؤية من أبي بكر بن الصائغ، غير أنه شغلته الدنيا حتى اخترقته المنية قبل ظهور خزائن علمه، وبث خفايا حكمته، وأكثر ما يوجد له من التأليف، فإنها هي غير كاملة ومجزوءة من أواخرها ككتابه في "النفوس" و "تدبير المتوحد" وما كتبه في المنطق، وعلم الطبيعة، أما كتبه الكاملة فهي كتب وجيزة ورسائل مختلصة...». ويضيف «... و أما من كان معاصراً له ممن لم يوصف بأنه في مثل درجته، فلم نر له تأليفاً...». «... وأما من جاء بعدهم من المعاصرين لنا، فهم بعد في حد التزايد أو الوقوف على غير كمال، أو ممن لم تصل إلينا حقيقة أمره». - نصوص لابن طفيل، نقلا عن عبد الأمير شمس الدين، الفكر التربوي عند ابن طفيل في كتابه "حي بن يقظان"، ص 69.

51- عبد الأمير شمس الدين، مرجع سابق، ص 54.

52- تيسير شيخ الأرض، مجلة التراث العربي-مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب-

دمشق العدد 18 - السنة الخامسة " 1985، ص 16.

53-المرجع السابق، ص. 16.

54- المرجع نفسه، ص.17.

55-المرجع نفسه، ص.17.

56-المرجع نفسه، ص.17.

\* نعتقد أن ابن طفيل قد نجح في تكوين الفرد، بل إن هذا التكوين بالنسبة له يمكن تجود الطبيعة ووسائلها، غير أنه لم يصل إلى درجة توضيح أنسنة الإنسان، وحتى مصطلح إنسان في اللّغة العربية يفيد الاجتماع وهو يتضمن الآخر عكس مفهوم الفرد الذي هو مفهوم له دلالة واضحة في الفلسفة الغربية أي الفرد المتفرد، وبالتالي لا نجد في القصة تربية اجتماعية بقدر ما هي تربية الفرد الإنساني سواء من حيث النمو والارتقاء بالاستعدادات، أو بالإدراك الحسي والعقلي وصولاً إلى مرحلة الحقيقة الأبدية أو الحكمة.  
57-المرجع نفسه، ص.17.